الثقافة أولاً!

لئن كانت الأرض والأصول الإثنية واللغة في ربوعنا على شيء من التماثل وليس الاندماج المرجوّ، فان الانتماء الديني والطائفي والمذهبي، ولو سطحياً أو موسمياً، ليس متماثلاً. أن الإيمان، كما الفكر، هو احدى تجلّيات الحرية الإنسانية، الإيمان هذا متعدّد الأشكال ولكنه صنيعة الوعي الفردي بالدرجة الأولى. هنالك عدد من البلدان فيها ديانات مختلفة ولكنها تؤلّف وحدة وطنية راسخة. ولنذكر أيضاً أن الدين الواحد، عندما يُفرض فرضاً، يستحيل عاملَ انقسام مولد الحقد والحركات الإنفصالية.

عاش وطننا وكأنه جنة حرية ومدرسة سلام وتسامح. تجاوز فيه دول مهيمنة المثال العلماني. فأمست أثنية لغتها ولكل دين حيُّه، ولكل طائفة مدرستها، ولكل ميليشيا فناؤها، ولكلٍ فئة على العموم ثيابها وفاكهتها وطبعاً انتماءاتها!..

يقول صاموئيل هانتنغتن (١٩٢٧ – ٢٠٠٨) أن أزمات الألف الثالث لن تكون اقتصادية أو سياسية أو إقليمية بل بالأحرى ثقافية.

تعددتينا المتعدّدة الأوجه والتجليات والأبعاد والأهداف والامتدادات الخارجية، جعلتني، رغم أنفي ورغم تدريسي حوار الأديان والحضارات في أكثر من جامعة وطنية وأجنبية، نتاجَ ثقافة غربيةٍ عجيبةٍ اقتضت مني، لضبطها، جهاداً موصولاً. انها، أساساً خليط من المعايير والمقاييس والمراجع والمرجعيات حيث التقاليد تتلقّى تجربة الحداثة المستوردة على عجل، ضربات شديدة ومتواصلة.

أن ثقافتنا، في صفائها وكمالها اللذين نتوق إليهما ونصبو، لا تنتهي عند الاطلاع على المسيحية والإسلام. انها الثقافة الممدودة عبر العصور منذ كتب الإنسان وغنّى ورسم في هذه البقعة من العالم. ونحن، سياسياً ووطنياً، في حاجة إلى ثقافة واحدة لشعب واحد وهذه لها وجهها الإقليمي ووجهها العالمي. وكل منا يريد المضمونين لأن اللبناني، على الرغم مما يظهر، يريد نفسه آتياً من الحقيقة وآتياً من الجمال ومهذّب نفسه لكل ما يهذبها. لا أحسب أن أحداً منا يريد ثقافة باترة تبدأ مع امرئ القيس فقط. كيف نجافي العقل (وإنما مُرَوْحَنّا!) أنّى حطّ رحاله؟ كيف يمكنك أن تتبوّأ في الرهافة مكاناً علوياً وأنت جاهل للكلاسيكية في بقاع الأرض؟

عندها، تتساوى طليعة المسيحيين والمسلمين عندنا. أتكلم هنا ثقافياً! وكما أن المسيحي لا يعتنق الإسلام إذا ما أحبّ ثقافته وتعاطى اشكالياته الفكرية، كذلك لا يعتنق المسلم المسيحية إذا قرأ آباء الكنيسة في شعرهم أو تصوفهم واطّلع على فنون مجتمعاتنا قبل أن يتعرّب لسانُها. لم تكن العروبة بدءاً مطلقاً.. إنها مجرى حياتنا اليومية.. هناك ينابيع!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه